آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان السابع والعشرون والثامن والعشرون - رمضان ١٤٢٠ هـ - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كتب في القرن التاسع

A COPY OF THE HOLY QURAN

written in the 9th century A. H.

بحوث ندوة الاستشراق في العلوم الإنسانية والاجتماعية
١٩ - ٢٠ أكتوبر ١٩٩٨م
جامعة الإمارات
(١)
الانثروبولوجيا والاستشراق
مغالطات المستشرقين في المصطلحات الإسلاميّة

الدكتور/ سليمان خلف
قسم الاجتماع
جامعة الإمارات العربية المتحدة

سأحاولُ أن أقفَ في مداخلتي هذه عند عددٍ من النقاط أو الفِكَرِ أتلمسُ من خلالها خطوطَ التّوازي والتقاطع، أو مواطن الالتقاء بين الانثروبولوجيا والاستشراق.

التسمية العربية للانثروبولوجيا «علم الإنسان»

أولاً: من أهمِّ الأشياء التي تشترك فيها الانثروبولوجيا والاستشراق أنَّ كليهما يهتمُّ بدراسة «الآخر»، وأنَّ مهنةَ كلٍّ منهما الاهتمام بهذا الآخر بالمعنى العلمي الأكاديمي للعبارة. أمّا بالنِّسبة للاستشراق فإنَّ «الشَّرق» بشعوبه وثقافاته وقضاياه التاريخية والمعاصرة قد مَثَّلَ هذا «الآخر». وأمّا بالنسبة للانثروبولوجيا فإنّ «الآخر» قد تمثّل تاريخيًّا بكل الثقافات والشعوب غير الأوربية. وفي الوقت الحديث؛ أي: منذ نهاية النصف الأوّل للقرن العشرين اتسعت المساحات التي يعيش عليها هذا الآخر؛ لتشملَ كلَّ المجتمعات والثقافات في كلِّ أنحاء المعمورة، حتى في قلب عواصم الغرب ذاته.

إنَّ الاستشراقَ بوصفه مفهومًا يتكوّن من عدَّةِ أشياءَ متداخلةٍ ومتكاملة مشروعٌ أكاديمي، ونمط تفكير أو نظرة معرفيَّة وفلسفيَّة، تميّز ما بين الشرق والغرب، وهو مواقف أيديولوجية، وكذلك يتمثل بكونه مؤسسةً أكاديميَّةً كبيرةً تقوم بإنتاج المعرفة حول الشَّرق. والانثروبولوجيا في المقابل هي أيضًا مشروع أكاديميٌّ معرفيٌّ كبيرٌ ظهر في الحضارة الغربيَّة الحديثة: لدراسة الآخر غير الأوربي، وهي معرفة علميَّة متراكمة، اتجهت منذ قرنٍ ونصف للكشف عن الآخر ودراسته، وهي أيضًا منهجيَّة علميَّة متميزة، لها أساليبُ وقواعدُ خاصَّةٌ بها داخل مؤسسات أكاديمية، تقوم بإنتاج هذه المعرفة وتدريسها ونشرها.

انصبَّ الاهتمامُ العلميُّ للانثروبولوجيا حتى أوائل الستينات على ما سُمّي بالمجتمعات والثقافات البدائية والتقليدية. ومنذ العقود الأربعة الماضية

اتسعت دائرةُ الاهتمامات البحثية والمعرفية للانثروبولوجيا لتشملَ كلَّ أنماطِ المجتمعاتِ الإنسانيَّة.

صُوِّرت المجتمعاتُ البدائيَّةُ وغيرها من المجتمعات القبليَّةِ والريفيَّةِ التقليديَّةِ في كثيرٍ من الكتابات الانثروبولوجية المبكرة من منظور الثقافة الأوربية الحديثة، وإن جاء ذلك ضمنيًّا؛ إذ تمَّ وصفها وبناؤها عن طريق الخصائص أو الأمور التي تفتقر إليها مقابلةً بالمجتمعات الأوربية المتمدنة.

وكذلك بالنسبة للاستشراق، فإنَّ هذا الآخر (الشَّرق)، ولا سيّما العالم الإسلامي فيه، قد تمَّ وصفه وبناؤه ودراسته بصورةٍ اختزالية سلبية في بعض الأحيان، حيث إنَّ هذه الصورةَ قد رسمت أيضًا عن طريقِ تحديدِ العناصرِ والمكونات (الإيجابية) الغائبة فيه، بوصفها نموذجًا نقيضًا ومقابلاً لنموذج مجتمع الغرب الَّذي يمتلك هذه الخصائصَ والمكوناتِ التي منحته الديناميكية والارتقاء والتقدم.

إنَّ المشروعَ النَّقْديَّ في كلٍّ من هذين التخصصين قد بدأ كتيارٍ قويٍّ وخصب؛ إذ كشف عن أشكالِ التَّمويهِ ومواطنِ الضَّعْفِ الكامنةِ في بعضِ المنطلقاتِ المعرفيَّةِ الأساسيَّةِ، والمواقف الأيديولوجية، والمثالبِ المنهجيَّةِ في دراسةِ هذا الآخر. وقد أسهمتْ عمليةُ الكشفِ هذه في إيجادِ حركةٍ نقديَّةٍ تصحيحيةٍ مثيرة وُجِّهَت لمراجعة أشكال المعرفة التي يقوم بإنتاجها وتدريسها الأكاديميون في هذين المجالين. وإنَّ بروزَ هذا الخطاب المعرفي النقدي واستمراره قد هيمن على معظم الكتابات الحديثة في الانثروبولوجيا والاستشراق منذ ثلاثة عقود تقريبًا.

مغالطات المستشرقين في المصطلحات الإسلاميَّة

دائرة المعارف الإسلامية :

تُعَدُّ دائرةُ المعارفِ الإسلاميَّةِ المرجعَ الأساسيَّ لفكر المستشرقين المعاصرين: فهي مستودع علمهم وخزانة معارفهم. وقد حرَّرها عددٌ من كبار المستشرقين تحت رعاية عدة مجامع علمية غربية، وتحوي بحوثُها خلاصةَ ما توصَّلَ إليه الفكرُ الاستشراقيُّ الحديث من نتائجَ وآراءٍ في الموضوعاتِ الإسلاميَّة المتنوعة. وقد صدرت طبعتها الأولى بين سنتي (١٩١٣ - ١٩٣٤م).

فإذا عرفنا أنَّ هذه الدائرةَ قد مُلِئَتْ بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلَّقُ به، فلا تخلو مادة من موادِّها من تضليل ودسّ للسّم، أدركنا كيف يدرس المستشرقون المعاصرون الإسلام، ولماذا تصدر عنهم تلك الآراء التي تثبتُ أنَّ الفكرَ الاستشراقيَّ في عصر العلم امتدادٌ لهذا الفكر في عصر الظُّلُمات.

ولَمّا كان الوقتُ المخصّصُ لا يَتَّسعُ لاستعراض الكثير من المصطلحات، فإننا سنعرض لمصطلح واحد من هذه الموسوعة، وهو كلمة «أمة»، كما سنعرض أيضًا لكلمة «قرآن» التي عرض لها الدكتور صبحي الصَّالح في كتابه «مباحث في علوم القرآن»، وذكر فيها أنَّ «قرأ» بمعنى «تلا» قد أخذها العرب من أصل آراميّ وتداولوها، وأنَّ العربَ في الجاهليَّةِ حينَ عرفوا لفظ «قرأ» استخدموه بمعنى غير معنى «التّلاوة» - يريد به معنى الجمع -. والدكتور صبحي في هذا متأثرٌ بما ذهب إليه المستشرق Bergstaesser.

ونبدأ أوّلاً بعرض ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن «الأمة»، ثم نبيِّنُ وجهةَ نظرنا في فهم المستشرقين وسبب خطئهم، ونقيم الأدلَّة على عدم صِحَّةِ استنتاجاتهم، ثم نعرضُ لكلمة «القرآن» مبينين الوجه الحقَّ في أصل اشتقاقها، وأنها عربية أصيلة، وأنَّ ما ادُّعيَ من أنَّها آرامية لا يصحُّ أيضًا.

«الأمَّة» في دائرة المعارف الإسلاميَّة

جاء في دائرة المعارف الإسلاميَّة[1] عن مصطلح «الأمة» الإسلاميَّة ما يأتي:

أُمّة : هي الكلمة التي وردتْ في القرآنِ للدّلالةِ على شعبٍ أو جماعة، وهي ليست مشتقة من الكلمة العربية «أمّ»، بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية «أمّا» أو من الآراميّة «أمّيثا»، لذلك فلا صلة مباشرة بينها وبين كلمة «أمّة» التي تدلُّ على معانٍ أخرى مثل: حين من الزّمن – سورة هود: ٨، وسورة يوسف: ٤٥، أو الجيل، وهذه نجدها في القرآن أيضًا – سورة الزخرف: ٢٢ وما بعدها.

وقد تكونُ الكلمةُ الأجنبيّةُ دخلت لغةَ العربِ في زمن متقدّم بعض الشّيء(٢). ومهما يكن من شيء فإنّ محمدًا أخذ هذه الكلمة، واستعملها، وصارت منذ ذلك الحين لفظًا إسلاميًّا أصيلاً.

والآيات التي وردت فيها كلمة «أمة» – وجمعها أمم – في القرآن مختلفة المعنى، بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق. على أنَّه ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّها تدلُّ دائمًا على فئة أو طائفة من النَّاس تربطهم أواصرُ الجنس أو اللغة أو الدِّين، وهم داخلون فيمن سيحاسبهم اللّهُ على ما كسبوا في هذه الحياة، ونجد دلائلَ تؤيدُ هذا المعنى حتى في الآيات التي وردت فيها كلمة «أمة» من غير نسبةٍ إلى شيءٍ ما، مثل آية /١٦٤/ من سورة الأعراف، وآية /٢٣/ من سورة القصص.

ويُطْلَقُ لفظُ «الأمَّة» للدَّلالةِ على الجيلِ في آيات متفرقة – سورة الأعراف: ٣٨ – وسورة فُصِّلَت: ٢٥ – وسورة الأحقاف: ١٨ – بل على جميع الكائنات الحيّة – الأنعام: ٣٨ – ويراد بهذا اللفظ دائمًا عند إطلاقه على هذه الكائنات أنَّها داخلة فيمن سيُحْشرون للحساب، وأنها أهلٌ للجزاء.

وأُطلِقَ لفظ «الأمة» شذوذًا في آيةٍ واحدة – سورة النحل: ١٢٠ – للدلالة على فردٍ هو إبراهيم. ومعنى لفظ «الأمة» – هنا – أيضًا: الإمام، كما يقول علماء اللغة، أو أنّ إبراهيم سُمِّيَ «أمة» بصفته رئيس الجماعةِ التي أنشأها، وذلك بإطلاق لفظ الكلّ على الجزء.

وفيما عدا هذا يدل لفظ «الأمة» دائمًا على جماعاتٍ كبيرة، أو على الأقلّ على جماعاتٍ تنطوي في غيرها أكبر منها.

وقد أرسلَ اللهُ لكلِّ أمةٍ رسولاً – الأنعام: ٤٢ – يونس: ٤٧ – الرعد: ٣٠ – النحل: ٤٣، ٦٣ – المؤمنون: ٤٥ – العنكبوت: ١٨ – غافر: ٥ – أو نذيرًا: فاطر: ٢٣، ٤٢، – يهديهم إلى الصراط المستقيم. ولكن هؤلاء الرسل أُوذُوا وكُذِّبُوا، كما وقع لمحمد – المؤمنون: ٤٤ – والعنكبوت: ١٨ – وغافر: ٥ – ولذلك سيكونون يوم القيامة شهداء على من كذّبهم وآذاهم – النساء: ٤٠ – النحل: ٨٤، ٨٩ – القصص: ٧٥ – البقرة: ١٤٢ –. وكل أمة ستحشر للحساب – الأنعام: ١٠٨ – الأعراف: ٣٧ – يونس: ٤٥ – الحجر: ٥ – المؤمنون: ٤٣ – النمل: ٨٣، الجاثية: ٢٧.

وفي الأمم المختلفة قومٌ أجابوا دعوة الرُّسل فاهتدوا إلى الصِّراط المستقيم، وآخرون لم يؤمنوا بما جاؤوا به – النَّحْل: ٣٦ – ويصدق هذا بنوعٍ خاصّ على أهل الكتاب، ويُسَمَّى المهتدون من أهل الكتاب أُممًا – آل عمران: ١١٣/ وما بعدها – المائدة: ٦٥، الأعراف: ١٥٩ – البقرة: ١٢٨، ١٣٤ – الأعراف: ١٦٧، ١٨١ – هود: ٤٨ – وهم طوائفُ صغيرةٌ في جماعاتٍ كبرى.

وكثيرًا ما يتعرَّض محمد لبحث مسألة اختلاف النَّاس أممًا بعد أن كانوا أمة واحدة، ويرى أنَّ السببَ الحقيقيَّ لهذا الاختلاف هو إرادة اللّه التي لا نحيط بها: ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَ أُمَّةً واحِدَةً فاخْتَلَفُوا، وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيْهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ يونس: ١٩، وانظر سورة المائدة: ٤٨ – وهود: ١١٨ – والنحل: ٩٣ – والشورى: ٨.

ويقال أحيانًا: إنَّ سببَ الاختلافِ هو بغيُ النَّاس وشقاقهم – البقرة: ٢١٣ – الأنبياء: ٩٣ – المؤمنون: ٥٣.

وفي آيةٍ أخرى يرجعُ السَّبب إلى انقسام بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أمّة – الأعراف: ٦٠، وانظر أيضًا: ١٦٨.

ويظهر أنَّ أقوالَ محمَّدٍ هذه، وفيها من الخطابة أكثر مما فيها من المنطق، إنما كانت إجابة عن اعتراضات أثارها خصومه من أهل الكتاب، وما كان النبي لِيَتَعَرَّضَ لهذه المسألة الصَّعبة من تلقاء نفسه.

أمَّا فيما يتعلَّقُ بأمة محمد خاصَّةً، فنستطيع أن نتبيّنَ بعضَ الاختلافِ والتبدل في معنى كلمة «أمة»، والمسألة – هنا – أسهل؛ لأنَّنا نعالجُ إلى حدٍّ ما مسألةً تاريخية.

كانَ محمَّدٌ في أوّل رسالته يعدّ العربَ عامة ومواطنيه من أهل مكة أمة قائمة بذاتها، وكما أنَّ اللَّهَ أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السَّالفة، أرسل محمدًا ليبلغ رسالة الله إلى الأمَّة العربيَّة، ويبين لها طريق النجاة، ولم يكن قد بُعث فيها رسولٌ من قبل، وقد كُذِّبَ وأوذي أشدَّ الإيذاء، شأنه في ذلك شأن من سبقه من الرُّسل.

وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيين، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، أسَّس جماعةً جديدةً تجعلُ أهلَ المدينةِ جميعًا جماعة سياسية واحدة بما فيهم المسلمون، ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية. وينصّ كتاب النبي بين المهاجرين والأنصار الَّذي وضعت فيه أسس هذا الحلف نصًّا صريحًا على أنَّ أهل المدينة بما فيهم اليهود يكوِّنون أُمَّةً[٣]. على أنَّ الصِّيغة السِّياسيَّةَ الغالبةَ في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة.

فلم يكد محمد يُحِسُّ أنَّ مركزه قد توطّد في المدينة، ويرى انتصاره في حروبه مع كفّار مكّة، حتى استطاع أن يُخْرِجَ من جماعته السياسية الدينية أهلَ المدينة وبخاصة «اليهود» الَّذين لم يعتنقوا الدِّين الَّذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يعدّ المسلمينَ أُمَّةً، ويؤكِّدُ صفاتهم الخلقية والدينية – آل عمران: ١٠٤ – ١١٠ – ويعدّهم غير أهل الكتاب الَّذين كان محالفًا لهم.

وكان من أثر قطعه للصلة بأهل الكتاب أن بدأ يميل شيئًا فشيئًا إلى أهل مكة وإلى الكعبة مركز عبادتهم – البقرة: ١١٩ وما بعدها وبخاصة: ١٢٢/ والحج: ٣٥، ٦٦.

وإنما كان رجوعه إلى فكرته الأولى في إنشاء أمة تشمل العرب جميعًا رجوعًا ظاهريًّا، فالحقيقة أنَّ النتيجةَ الأخيرةَ التي وصل إليها تختلف اختلافًا جوهريًّا عن النقطة التي بدأ منها، فإنَّ فكرةَ إنشاء أمَّة عربيَّة، وهي الفكرةُ التي أخذها محمَّدٌ أوّلَ الأمرِ، قضيةً مسلمة لم تتمَّ إلاّ بعد جهد عظيم. على أنه إذا كانت الأمة التي أنشأها أوّلَ الأمرِ من العرب، فقد كان هذا أمرًا ثانويًّا.

أمَّا الأمرُ الجوهريُّ فهو الأساس الدينيُّ الَّذي قامت عليه، فبعد أن كانت أمة من العرب صارت أمة من المسلمين. ولا عجب أنه لم يكد محمد يموت حتى انتشرت إلى ما وراء جزيرة العرب، وأصبحت بمرور الزَّمَنِ وحدةً كبيرةً تشملُ أجناسًا وأممًا مختلفة.

هذا ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية من أقوال المستشرقين حول كلمة «أمة»، والقضية تتمثل في أمرين:

الأوَّل : طعنهم في عربية الكلمة، وأنها مأخوذة من العبرية أو الآرامية، وذلك لعدم وجود صلة اشتقاقية بين معانيها المتعددة.

والثَّاني : ادِّعاؤهم تطوُّرَ المعنى من أمّة عربيّة إلى أمة إسلامية، وكون اليهود داخلين فيها أو غير داخلين.

وسنتحدث أوّلاً عن وجودِ الصِّلةِ الاشتقاقيّةِ بين معاني الأمة، ثم نعالج الموضوع الثاني.

الأمّة .. واللغة العربيّة

أصل المعنى اللغويّ

يرى أبو البقاء: أن «الأمة» - في الأصل: المقصود، كـ «العمدة» و«العُدّة» في كونهما معمودًا ومعَدًّا[٤].

وهذا يعني أنَّ «الأمَّة» - عند أبي البقاء - بمعنى اسم المفعول. ولم أرَ أحدًا من اللغويين - فيما علمت - تَكلَّم على الوزنِ الصَّرْفيِّ لكلمة «أمَّة» غير أبي البقاء. لكن يُفهم من المعاني التي ذكرها علماء اللغة أنَّ «الأمة» قد تكون بمعنى اسم المفعول - كما هو رأي أبي البقاء - وقد تكون بمعنى اسم الفاعل. وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء اللّه.

الاشتقاق اللغويّ

وإذا كانت «الأمة» بمعنى: المقصود، فإنَّ اشتقاقها من «الأمّ» بمعنى القصد. وهذا ما أكّده صاحبُ لسانِ العرب حيث قال: الأمَّة - في اللغة -: من القصد. يقال: أممت إليه: إذا قصدته»، ويشهد لقول صاحب اللسان قوله تعالى: ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: قاصدين. إلاّ أنَّ الأمر الَّذي يلفت الانتباه أنَّ «الأمَّة» - في اللغة - تتصرف في معانٍ كثيرةٍ كما جاء في كتاب «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروز آبادي صاحب القاموس حيث قال: «الأمَّةُ - لغةً -: الرَّجلُ الجامعُ للخير، والإمام، وجماعة أرسل إليهم رسول، والجيل من كلِّ حيٍّ، والجنس، ومن هو على الحقِّ مخالف لسائر الأديان، والحين، والقامة، والأم، والوجه، والنَّشاط، والطَّاعة، والعالِم، ومن الوجه: معظمه، ومن الرجل: قومه، وأمَّة اللّهِ تعالى: خلقه»[٥].

وإنَّ تصرُّفَ الكلمة في هذه المعاني المتعدِّدة هو الَّذي دفع المستشرقين إلى الزَّعم بأنَّ الكلمةَ دخيلةٌ في العربية، وأنَّها ليست مشتقة من «الأمِّ» بمعنى القصد، حيث لم يجدوا صلة اشتقاقيَّة بين هذه المعاني على حدِّ قولهم. ومن ثمَّ حاولوا أنْ يلصقوها بالعبريَّةِ أو الآراميَّةِ.

الأصل الَّذي يجمع هذه المعاني

يرى صاحب لسان العرب أنَّ تلك المعانيَ المتعددة لكلمة «أمَّة» ترجع كلُّها إلى معنى القصد حيث يقول في ذلك: «وأصل هذا الباب كلّه من القصد، يقال: أممت إليه: إذا قصدته. فمعنى «الأمَّة» في الدِّين: أن مقصدهم مقصدٌ واحد. ومعنى «الأمَّة» في النِّعْمَة: إنَّما هو الشيء الَّذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعنى «الأمة» في الرَّجل المنفرد الَّذي لا نظير له: أنَّ قصده منفرد من قصد سائر النَّاس، يقول النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً
وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ

ولو أنَّ صاحب اللسان تابع الكلام على بقية المعاني لأعفانا من كثيرٍ من العناء في هذا الموضوع، ولكنه مع الأسف لم يستوعبْ كلَّ المعاني السَّابقة ممَّا يجعلُ مهمتنا أكثرَ صعوبةً وتعقيدًا، وسنحاولُ فيما يأتي اكتشافَ الصِّلة الاشتقاقيَّة الجامعة لمعاني كلمة «الأمّة» مستعينين في ذلك بما ترك لنا علماء اللغة والمؤلفون فيها من إشاراتٍ وأمارات.

تصنيف المعاني المختلفة ضمن مجموعات

إنَّ نظرة مدققة في المعاني المتعدِّدة التي أشرنا إليها تفيد إمكانَ تصنيفِ تلك المعاني في خمس مجموعات على النحو الآتي:

المجموعة الأولى: تكون «الأمة» فيها بمعنى الجماعة. وتشمل: الجماعة من النَّاس - أتباع الأنبياء - جماعة العلماء - مَنْ أُرسلَ إليهم الأنبياء من كافرٍ أو مؤمن - الجيل والجنس من كلِّ حيٍّ - إلى غير ذلك من أنواع الجماعات التي ذكرها علماء اللغة.

المجموعة الثانية : تكون «الأمة» فيها بمعنى «الدِّين» أو «الملَّة» أو «الطَّاعة»، وهي ألفاظٌ متقاربة في المعنى.

المجموعة الثالثة : تطلق «الأمة» على رجل واحد إذا كان على دين الحقِّ مخالفًا لسائر الأديان، أو كان لا نظير له، أو كان رجلاً جامعًا للخير، أو عالمًا، أو قدوةً، أو إمامًا، أو ربانيًا. وهي كلُّها ألفاظٌ شبه مترادفة تعبِّر عن حقيقةٍ واحدة.

المجموعة الرابعة : تكون «الأمّة» بمعنى «الحين»، أو «الزمن»، أو «السنين».

المجموعة الخامسة : تكون «الأمّة» أسماء لأعضاء في الإنسان كـ «الوجه» و«القامة».

ويلاحظ أنَّ المجموعاتِ الأَربعَ الأُولى، هي التي ورد استعمالها في القرآن الكريم، ومن ثَمَّ سينصبُّ جهدنا واهتمامنا عليها دون المجموعة الخامسة، التي يكفي أن نشير فيها إلى أنَّ «الوجه» و«القامة» ليسا بعيدين عن معنى «القصد» الَّذي اشتقت منه «الأمة»، وذلك أنَّ «الوجه» و«القامة» كثيرًا ما يُعَبِّرانِ عن الجهة التي يقصدُها الإنسانُ، وهكذا يقال: لا أَمّةَ لبني فلان. أي: ليس لهم وجه يقصدون إليه، لكنهم يخبطون خبط عشواء.

ونعود الآن إلى المجموعات الأربعِ الأولى لنرى كيفَ يمكنُ رَجْعُهَا إلى أصلٍ واحد:

المجموعة الأولى : أن تكون «الأمَّة» فيها بمعنى الجماعة.

اتفق اللغويون جميعًا على أنَّ معنى «الجماعة» هو المعنى الأصليُّ لـ «الأمَّة»، وأنَّ المعانيَ الأُخَر يمكنُ ردُّها إلى ذلك المعنى الأصلي: قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «الأمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد. سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا».

وقال أبو حاتم الرَّازي في كتابه «الزِّينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة»: «الأمَّة: أصلها الجماعة من النَّاس والدَّوابِّ والطَّير - أيّ جماعة - وأصله: الاجتماعُ على الشيء وعلى حالة واحدة».

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن: «أصل «الأُمَّة»: الصِّنف من النَّاس والجماعة».

أمَّا كيف صارت «الأمة»: الجماعة، وصلة ذلك بأصل الاشتقاق، فنجده عند أبي البقاء والطَّبري والحكيم الترمذي: يقول أبو البقاء: «الأمّة - بالضَّم - في الأصل -: المقصود، كالعُمدة والعُدّة في كونهما معمودًا ومُعَدًّا، وتسمّى بها الجماعة من حيثُ تؤمُّها الفرق».

ويقول الحكيم الترمذي: «فالأُمَّةُ: هي الجماعة التي يَؤُمُّها النَّاس ويقصدونها»، ثمَّ يقول: «وإنَّما صارت «الأمّة» - في هذا المكان -: الجماعة؛ لأنَّ الَّذي يقصده النَّاس ويبصرونه: إنَّما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها»[٦].

ويلاحظ تقارب قول أبي البقاء مع قول الحكيم الترمذي، وأنَّ «الأمّة» - عندهما - بمعنى اسم المفعول.

أمَّا الطَّبريُّ فَيُفْهَمُ من قوله أنَّ «الأمَّة» بمعنى اسم الفاعل، وذلك حينما يقول: «وأصل «الأمَّة»: جماعةٌ من النَّاس تجتمع على دينٍ واحد وملَّة واحدة... ثم تستعملُ في معانٍ كثيرة ترجع إلى معنى الأصل». وكأنَّ المعنى - على قول الطبري -: أنَّ «الأمَّة»: هي الجماعةُ التي تقصد الدِّين وتلتقي عليه.

المجموعة الثانية: وتكون «الأمة» فيها بمعنى الدِّين أو الملَّة.

وكما اتفق علماء اللغة على أنَّ معنى «الجماعة» هو الأصل في معاني «الأمّة»، اتفقوا كذلك على أنَّ «الأمّة» تكون بمعنى «الدِّين».

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: الأمّة: الدِّين. وحكى أبو زيد: لا أمّة له: لا دين له.

وقال أبو حاتم الرَّازي في كتاب «الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة»(٧) قال أبو عبيدة: أُمَّةٌ واحدةٌ. ويستدلُّون على ذلك ببيتِ النَّابغةِ المشهور:

حَلَفْتُ فَلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً
وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وَهوَ طَائِعُ

يقصد بـ «ذو أمة»: ذو دين.

أمَّا كيف صارت «الأمَّة»: الدِّين أو الملَّة، فنجده عند أبي البقاء والطَّبري وابن قتيبة.

يقول أبو البقاء: «وتطلقُ – أي الأمَّة – على الدِّين والملَّة والطَّريقة التي تؤم»، فهو على أصله السَّابق في أنَّ «الأمّة» بمعنى اسم المفعول.

أمَّا أبو جعفر الطَّبري فيقول: «والأمّة: الدِّين. والأصل أنَّهُ يُقَالُ للقوم يجتمعون على دينٍ واحد: أمّة. فتقام «الأمّة» مقام الدين»، وكذلك تعليل ابن قتيبة قريب من تعليل الطَّبريِّ.

ومما هو جديرٌ بالذكر أنَّ «الدِّين» المقصود في تعريف الطَّبري يراد به التَّدينُ العمليُّ الَّذي يتمثل في السُّلوك الإنسانيِّ، ويؤيد ذلك أنَّ «الأمّة» ترِد بمعنى «الطَّاعة» و«الطَّريقة»، فهما تفسيرٌ للدِّين المراد هنا.

المجموعة الثالثة : وتكون «الأمّة» فيها بمعنى الرَّجل المنفرد.

فقد جاء في لسان العرب: أنَّ «الأمّة»: كلّ مَنْ كان على دينِ الحقِّ مخالفًا لسائرِ الأديانِ، فهو أمَّة وحده... و«الأمّة»: الرَّجل الَّذي لا نظير له... و«الأمّة»: الرَّجل الجامع للخير. وذكر كثيرٌ من اللغويين الحديث الوارد في – زيد بن عمرو بن نفيل – وأنه يبعث يوم القيامة أمّة وحده. ويقول أحمد بن فارس في معجم مقاييس اللغة: والأمّة: الإمام. ونقل أبو حاتم الرازي أنَّ «الأمّة»: القدوة والإمام.

ولا شكّ في أنَّ هذه المعانيَ والألفاظ تُعَبِّرُ عن حقيقة واحدة.

أمَّا كيف صارت «الأمّة»: الرَّجل المنفرد، فهذا ما نجده عند صاحب اللسان، والرَّاغب الأصفهانيّ والطَّبريّ، وابن قتيبة، وأبي حاتم الرَّازي، وأبي البقاء.

يقول صاحب اللسان: «ومعنى «الأمّة» في الرَّجل المنفرد: أنَّ قصده منفرد من قصد سائرِ النَّاس».

ويقولُ الرَّاغبُ الأصفهانيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: قائمًا مقام جماعةٍ في عبادةِ اللَّه، نحو قولهم: فلانٌ في نفسه قبيلة.

ويقول أبو جعفر الطَّبري: «فالأمّة بمعنى «الإمام» و«معلّم الخير» إنَّما جاز تسمية الواحد فيها باسم الجماعة؛ لاجتماع أخلاق الخير – الَّذي يكون في الجماعة المفرَّقة – فيه. كما يقال: فلانٌ أمّة وحده».

وأمَّا ابن قتيبة فيقول: «ثم تصير «الأمة»: الإمام، والرباني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، أي: إمامًا يقتدي به النَّاس؛ لأنَّه ومن اتبعه أمّة، فسُمي أمّة؛ لأنَّه سبب الاجتماع. وقد يجوز أن يكون سُمّي أُمَّةً؛ لأنَّه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمّة. ومن هذا يقال: فلانٌ أمّة وحده. أي: يقوم مقام أمّة».

وأمَّا أبو حاتم الرَّازي فيقولُ: «وقيل للرَّجل الواحد أمّة؛ لاجتماع النَّاس إليه في حال الدِّين. وسمّي بذلك أيضًا لما اجتمع فيه من الخصال ما يكون متفرقه في كثيرٍ من النَّاس، مثل: العلم، والعقل، والدِّين، والجود، والشَّجاعة وغير ذلك. فلما اجتمعت فيه، قيل له: أمّة؛ لأنَّه قام مقام جماعةٍ من النَّاس، وكان يجمعُ النَّاس إليه».

وقال أبو البقاء: «وتطلق أي: الأمّة على الرَّجل الجامع لخصال محمودة... ومن هنا قيل: لو لم يَبْقَ من المجتهدين إلَّا واحدٌ، يكون قوله إجماعًا؛ لأنَّه عند الانفراد يَصْدقُ عليه أنَّهُ أُمَّةٌ».

وهكذا نرى أنَّ صاحبَ اللسان يعودُ بالكلمةِ إلى «القصد»، بينما يجعلها الآخرون ترجع إلى سبب الاجتماع، أو اجتماع خلال الخير فيه، أو لقيامه مقام أُمَّة في عبادة اللّهِ.

المجموعة الرابعة : وتكون «الأمّة» فيها بمعنى «الحين»، أو «الزمن»، أو «السِّنين»:

قال صاحب اللسان: الأمة: الحين، وقال ابن فارس: وبعد ذلك أصولٌ ثلاثة – يريد في معنى الأمة – وهي: القامة، والحين، والقصد.

أمَّا كيف صارت «الأمّة»: الحين، أو السِّنين:

فيرى الحكيم التّرمذي أنَّها صارت كذلك لاجتماع الأيَّام والشُّهور في سنين كثيرة، ولا يظهر لهذا القول صلةٌ بالمعاني الأُخَرِ لكلمة «الأمّة».

وَأمَّا القول القريب إلى ما نحن بصدده فنجده عند الطَّبري وابن قتيبة؛ والرَّاغب الأصفهانيِّ. وقد عَبَّرُوا عنه بتعبيراتٍ متقاربة:

يقول أبو جعفر الطَّبري: وإنَّما قيل «للسنين المعدودة» و«الحين»: أمّة؛ لأنَّ فيها تكون «الأمّة».

ويقول ابن قتيبة: ثم تصير «الأمّة»: الحين. كأنَّ «الأمّة من النَّاس» ينقرضون في حين، فتقام الأمّة مقام الحين.

ويقول الرَّاغب الأصفهانيُّ: وحقيقة ذلك: بعد انقضاء أهل عصر، أو أهل دين.

نظرة جديدة تربط هذه المعاني

ويمكن لنا أن ننظر إلى هذه المعاني الأربعة في كلمة «الأمّة» نظرة أخرى، تُمَثِّلُ المراحلَ التي تمرُّ فيها «الأمّة» عبر تاريخها، فنقول: تتمثل «الأمّة» أوَّلاً برجل واحد، حينما يكونُ على دين الحقِّ مخالفًا لسائر الأديان، وهو النَّبيُّ غالبًا، أو من يسير على طريقته، ومن ثمَّ يكون الرَّجُلَ الَّذي لا نظيرَ له: لأنَّهُ الرَّجلُ الجامع للخير، والَّذي يكون إمامًا وقدوةً لغيره من النَّاس.

فإذا استجابت لهذا الرَّجل فئةٌ من النَّاس، وسارت على طريقته ومنهجه، سُمِّيتْ أُمَّةً لاجتماعها إليه في حال الدِّين، أو لأنَّها تعبيرٌ عمليٌّ عن مبادئ الدِّين وأحكامه مطبقة في عالم الواقع.

فإذا تخلّت الأمَّةُ عن دينها وعقيدتها فقدتْ حقيقةَ وجودِها، ومن ثَمَّ تسمى أمَّةً باعتبارِ ما كانَ، فكأنَّ «الأمّة» هنا يرادُ بها الحقبةُ الزمنيَّةُ التي كانت فيها ملتزمةً بدينها، وكأنَّ القرآنَ يَلفتُنا في هذا إلى أنَّ التَّاريخ لا يكون بوحدات زمنية فقط، وإنما يمكن أن يحسب بوحداتٍ دينية أيضًا يعبّر عنها بـ «الأمّة»، ويراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها تلك الأمة منسجمةً مع عقيدتها ودينها. وهذا يعني أنَّ الإسلامَ لا يقيمُ كبيرَ اعتبارٍ للزمن وحده، وإنما الاعتبار الأهمُّ لما يجري فيه من نماذج عملية ملتزمة بطرق الهداية، ومن ثم يكثر في القرآن إطلاق لفظ «القرون» على الأمم السَّابقة، مع أنها في الأصل لمدَّةٍ من الزمان.

وقد أَطَلْتُ الكلامَ في المعنى اللغويِّ لـ«الأمّة» لِيَتَبَيَّنَ فسادُ ما ذهبَ إليه المستشرقون في دائرة المعارف الإسلاميَّة من زعمهم أنَّ الكلمةَ دخيلةٌ على العربيَّةِ لعدم وجودِ صلةٍ اشتقاقيَّةٍ بين معانيها المتعدِّدة، ومن ثَمَّ فقد جعلوها ترجعُ إلى أصلٍ عبريٍّ أو آراميّ. أمَّا من حيثُ الصِّلَةُ الاشتقاقيَّةُ، فأعتقد أنَّ ما تقدَّمَ من الكلام كافٍ في دَحْضِ هذه الفِرْيَةِ التي أطلقها المستشرقون، وقد يكونون معذورين – لجهلهم بالعربيَّة وفقهها – في أن لا يدركوا الصِّلَةَ الاشتقاقيَّةَ بين معاني هذه الكلمة، لكنهم غير معذورين في نفيهم هذه الصِّلَةَ أصلاً، فهذا تَقَوُّلٌ بما لا علم لهم به، ومن ثَمَّ كان عليهم أن يكونوا أكثر تواضعًا؛ لأنَّهم يتكلَّمون في شأن لغةٍ يُعَدُّونَ تلاميذَ في دراستها.

والأمرُ الآخر الَّذي تَسَرَّعَ فيه المستشرقون – وكانت لهم فيه أناة – زعمهم بأنَّ كلمة «أمّة» العربية،

ترجع إلى أصل عبريٍّ أو آراميّ، دون أن يُقدّموا على ذلك دليلاً علميًّا واحدًا، الأمر الّذي يتنافى مع الموضوعية التي يدّعُونها، ومع المنهجيّة العلميّة التي كثيرًا ما يلهجون بذكرها، ذلك أنّ الزعمَ بأنّ كلمة ما مأخوذة من لغةٍ من اللغات، ليس بالأمرِ الهيّنِ اليسير، فإنّ وجود كلمة واحدة في لغتين مختلفتين ليس شرطًا أن تكونَ إحدى اللغتين قد أخذتها عن الأخرى. ولو سُلِّم، لاحتاج القطعَ بأنّ هذه اللغة هي الآخذة، إلى أدِلَّة وبراهينَ دونها صعوباتٌ وصعوبات.

ومع ذلك شعر المستشرقون - والحقُّ يُقالُ - بضعف موقفهم هذا، فاحتاطوا لأنّفسهم شيئًا من الاحتياط، فبعد أن أطلقوا دعواهم العريضة في جرأة على العلم غريبة، أدركوا أنَّهُمْ ارتقوا مرتقًى صَعْبًا، وأنّ كلامهم هذا غيرُ كافٍ في إقناعِ الآخرين، فكان عليهم أن يُفَكِّروا بطريقةٍ يحسنون فيها الانسحاب، فوجدوا المخرج في مثل هذه العبارة:

«وقد تكونُ الكلمةُ الأجنبيّةُ دخلت لغةَ العرب في زمن متقدّم بعض الشّيء... ومهما يكن من شيء، فإن محمدًا أخذ هذه الكلمة واستعملها، وصارت منذ ذلك الحين لفظًا إسلاميًّا أصيلاً».

هذا ما يمكن قوله في النُّقطة الأولى ردًّا على ادّعائهم عدم عربيَّة الكلمة، أمّا ما يردّ به على ما ادّعوه في المعنى الإسلاميّ لكلمة الأمة، فنقول:

المعنى الإسلاميّ لـ «الأمّة»

عرفنا فيما سبق المعاني المتعدِّدة لـ «الأمَّة» في اللغة وفي القرآن الكريم، وبقي علينا أن نعرفَ المدلولَ الإسلاميّ لـ «الأمَّة» حينما تطلق أو حينما تأتي بصفة المدح:

يقول أبو البقاء: «وفي حدود المتكلّمين: الأمَّة: هم المصدِّقون بالرّسول دون المبعوث إليهمْ»(٨).

ويريد بقوله: «في حدود المتكلمين»: تعريفات علماء الاعتقاد والتّوحيد والكلام.

ويقول الإمام أبو زكريّا النّوويُّ: لفظة «الأمة» تطلق على معانٍ منها:

- مَنْ صَدَّقَ النّبيَّ ﷺ - وآمن بما جاء به وتبعه فيه، وهذا هو الّذي جاء مدحه في الكتاب والسُّنّة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وكقوله - ﷺ -: (شَفَاعَتِي لأُمَّتِي) وقوله: (تَأْتِي أُمَّتِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ) وغير ذلك(٩).

ولا شكّ أنّ ما جاء في تعريف أبي البقاء هو عين ما جاء في تعريف النّوويّ، وإنْ كان النّوويُّ أوفى شرحًا وتفصيلاً. وبذلك يخرج من المفهوم الإسلاميِّ لـ «الأمة» أولئك الّذين لم يُصَدِّقُوا الرُّسلَ ولم يؤمنوا بما جاءت به من الهدى، وإن كانوا يدخلون في معنى «الأمة» لغةً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك بوصفهم مقصودين بالدّعوة من قبل الرّسولِ المبعوثِ إليهم. وهذا المعنى الآخر هو الّذي صَرَّحَ به النّوويُّ بعد أن ذكر المعنى الإسلاميَّ الممدوحَ فقال: ومنها - أي من معاني الأمَّةِ -: مَنْ بُعِثَ إليهم النّبيُّ - ﷺ - من مسلمٍ وكافر، ومنه قوله - ﷺ - فيما أخرجه مسلم في كتاب الإيمان: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هذهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إلاّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ).

ويُعَرِّفُ الأستاذُ سَيِّد قطب - رحمه الله - الأمّة بالمعنى الإسلاميّ فيقول: «الأمَّة: هي مجموعةُ النّاسِ التي تَدِينُ بعقيدةٍ واحدةٍ وتَصَوُّرٍ واحد، وتدينُ لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهليّ القديم أو الحديث: مجموعة النّاسِ التي تسكنُ في إقليمٍ واحد من الأرض، وتحكمها دولةٌ واحدة. فهذا مفهومٌ لا يعرفه الإسلام. إنما هي مصطلحاتُ الجاهليَّةِ الحديثة»(١٠).

وهو لا يختلف عن التّعريفين السّابقين، إلاّ أنه أكثر تركيزًا على معنى القيادة الواحدة، المفهومة في التعريفين من إضافة «الأمة» إلى «النّبي». فالنّبيُّ هو

نواة الأمّة الّذي يعملُ على إيجادها وقيادتها بعد ذلك في طريق الهداية.

ولقد حَرَصَ رسولُ اللّه - ﷺ - على تأكيد المعنى الإسلاميِّ للأمّة وتميّزه عن كلِّ الأممِ الأخرى في إعلانه الدّستوريِّ العظيم الّذي نَظَّمَ به علاقةَ المسلمين مع غيرهم في المدينة المنوّرة، وذلك بعد قيام الدولة الإسلاميَّةِ التي كانت تضمُّ قبائلَ متعدِّدَةً من اليهود، ولعلَّ هذا الإعلان التَّاريخيَّ يُعَدُّ أول وثيقة دستورية تُحَدِّدُ العَلاقاتِ بين أمَّةِ المسلمين وغيرهم تحديدًا دقيقًا، وتُبَيِّنُ الحقوقَ والواجباتِ للطوائفِ والقبائلِ كافَّةً، وتحيلُ الأمرَ عند الخلاف إلى رسولِ اللّهِ - ﷺ - وفيما يأتي مقتطفات من هذا الإعلان بالقدر الّذي يَتَّصِلُ بدراستنا:

قال ابن كثير في «السِّيرة النَّبويَّة»(١١): وقال محمَّد بن إسحاق: كتبَ رسولُ اللّهِ ﷺ كتابًا بينَ المهاجرينَ والأنصارِ وادَعَ فيه اليهود، وعاهدهم وأَقَرَّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا كتابٌ من محمَّدٍ النّبيِّ الأُمِّيِّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحقَ بهم وجاهد معهم. إنَّهُمْ **أُمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاسِ**، المهاجرون من قريش على رَبعتهْم - أي: حالهم التي أتى الإسلام وهم عليها - يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم - أسيرهم - بالمعروف والقسط)....

إلى أن يقول:

«وإنَّ يهود بني عوف **أمةٌ مع المؤمنين**، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته...).

والكتاب كما لاحظنا يجعل المسلمين جميعًا أمَّةً واحدةً من دون النَّاس، سواءٌ منهم الّذين كانوا في عهد النَّبيِّ [من المهاجرين والأنصار أو الّذين يلحقون بهم بعد ذلك ويجاهدون معهم، كذلك يجعل اليهود أمَّةً مُسْتَقِلَّةً ولكنهم يجتمعون مع أمَّةِ المؤمنين في دولةٍ واحدة، ولكلِّ أمةٍ دينها الخاصُّ بها.

والكتاب إضافة إلى أنه يميِّز الأمَّةَ الإسلاميَّةَ عن غيرها من الأمم، يبيِّنُ لنا كيف يمكن التَّعايشُ بين هذه الأمم المختلفة في الدِّين في دولة تحكمها شريعة الإسلام، فتحقِّقُ العدل بين الجميع.

وبذلك لا تصحُّ أيضًا مزاعمُ المستشرقينَ في دائرة المعارف الإسلامية؛ إذْ تَدَّعي أنَّ كتابَ النَّبيِّ - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار يَنُصُّ على أنَّ أهل المدينة بما فيهم اليهود يكونون أمّة، وأنَّ الصِّيغةَ السِّياسيَّةَ الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة، وأنَّ محمدًا ﷺ لم يكد يحسُّ أنَّ مركزه قد تَوطَّدَ في المدينة، ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة، حتى استطاع أن يُخرِجَ من جماعته السِّياسيَّة الدينية - وبخاصة اليهود - الَّذين لم يعتنقوا الدِّينَ الَّذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يَعُدُّ المسلمين أمَّةً، ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية، ويَعُدُّهم غيرَ أهلِ الكتاب الَّذين كان محالفًا لهم.

فالنَّصُّ الّذي جاء في الصَّحيفة واضحٌ في تمييزه بين أمَّة المسلمين وأمَّة اليهود، وأنَّ اليهود أُمَّةٌ مع المؤمنين في هذا التَّحالف، وليسوا أمَّةً من المؤمنين، والظَّاهر أنَّ المستشرقين لا يفرقون بين كلمة «من المؤمنين» وكلمة «مع المؤمنين»، ثُمَّ إنَّ الَّذي حدث بعد ذلك من مواقف ضدَّ اليهود لم يكن إلاّ تطبيقًا لما جاء في الصَّحيفة، التي حدَّدت العلاقاتِ بينَ سكانِ المدينةِ كلِّهم، وأنَّ الَّذي ينقضُ ما جاء فيها لا يوتغ إلاّ نفسه، وفعلاً فقد بدأ اليهود بنقض ما جاء فيها حين تآمروا مع المشركين على المسلمين، وحين أَخَلُّوا بالتزاماتهم تجاه ما جاء فيها، ومن هنا كان العقاب يقع على مَنْ نقض ما تعهد به، وكان إخراج

اليهود من المدينة متتابعًا حسب المخالفات، ولم يكن دفعةً واحدةً.

وهكذا يحاولُ المستشرقونَ الدَّسَّ والتَّحريفَ للنُّصوص والتَّاريخ بمثل هذا الكلام العامِّ، وذلك الخلط العجيب الَّذي يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلميِّ الرصين.

أمَّا الكلمةُ الثانيةُ التي ادّعى الدكتور صبحي الصَّالح – رحمه الله – بأنها يمكن أن تكون مأخوذة من الآراميَّة متأثرًا في ذلك بالمستشرق «براجستراسر»، فهي كلمة القرآن، ومن ثمَّ لا بدَّ لنا من الحديث عن أصل الاشتقاق والمعاني التي يمكن أن تكون للكلمة في العربيَّة من خلال عرض العلماء، ثم نردّ القول: إنَّها آرامية حيث لا يصحُّ ذلك.

كلمة القرآن

اختلف العلماء في الأصل الاشتقاقيّ لكلمة قرآن على عدَّةِ أقوال يحسن بنا أن نلمَّ بها هنا:

القول الأوَّل : أن كلمة «قرآن» غير مشتقة من «قرأت»، ومن ثَمَّ فهي غير مهموزة «قران»، ولكنها اسمٌ للقرآن، مثل «التوراة» و«الإنجيل»، وإلى هذا ذهب جماعةٌ منهم الشَّافعيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الواحديُّ : كان ابن كثير يقرأ بغير همز – وهي قراءة الشَّافعيُّ أيضًا –.

قال البيهقيُّ : كان الشَّافعيُّ يهمز «قرأت»، ولا يهمز «القرآن»، ويقول: هو اسمُ لكتاب اللهِ غير مهموز.

قال الواحديُّ : قول الشَّافعيّ هو اسمٌ لكتاب اللهِ، يعني أنه اسمُ علم غير مشتق، كما «قاله جماعةٌ من الأئمة»(١٢).

ولا شكّ في أنَّ هذا القول يعلّل القراءة بغير الهمز التي كان يقرأ بها ابنُ كثيرٍ والشَّافعيُّ، ولكنه يخالف ما قرأ به جمهور القرّاء الَّذين كانوا يقرؤون بالهمز، ومن ثَمَّ، يمكن أن تكون قراءة الهمز شاملة للقراءة بغير همز، حيث حذفت الهمزة، وألقيت حركتها على ما قبلها تخفيفًا، وذلك لثقل الهمزة. بينما الَّذي يقول بغير الهمز كأنه لا يقول بالقراءة الأخرى كما يفيده الكلام السَّابق «هو اسمٌ لكتابِ الله غير مهموز».

القول الثَّاني : أنَّ كلمة «قرآن» مشتقة من «قرنت الشيء بالشيء»، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به القرآن، لقرآن السور والآيات والحروف فيه. وإلى هذا ذهب الأشعري وجماعة.

القول الثَّالث : أنَّ كلمة «قرآن» مشتقة من القرائن: لأنَّ الآيات منه يصدق بعضها بعضًا، ويشابه بعضها بعضًا، وهي قرائن – وإلى هذا ذهب الفرّاء –.

وعلى هذين القولين هو بلا همز أيضًا، ونونه أصلية(١٣).

ولا يخفى ضعف هذين القولين لما بيّنا في القول الأول، ونظرًا لضعف التعليل الَّذي ذكر لهما ولما فيه من التكلّف.

القول الرَّابع : يرى ابن فارس أنَّ مادة «قرى» و«قرأ» بمعنى واحد، وهو يدل على جمع واجتماع، من ذلك: «القرية» سميت قرية لاجتماع النَّاس فيها، ويقولون: قريت الماء في المقراة: جمعته... ويقولون: ما قرأت هذه الناقة سلىً، كأنه يراد «أنها ما حملت قط... قال: ومنه القرآن، كأنه سمي به لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك»(١٤).

ويرى الراغبُ الأصفهانيُّ أنَّ القرآن في الأصل مصدرٌ نحو «كفران»، و«رجحان»، وهو بمعنى القراءة(١٥).

وقال اللحياني: سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر(١٦).

والقراءة عند الراغب: هي ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال

ذلك لكلّ جمع، لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوّه به قراءة..

وقال الهروي مخالفًا ما ذهب إليه الراغب: كلّ شيءٍ جمعته فقد قرأته(١٧).

ثم يقول الراغب: قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وتفصيل كلّ شيء﴾(١٨).

وقال أبو عبيد: سُمي القرآن قرآنًا، لأنّه جمع السُّور بعضها إلى بعض(١٩).

القول الخامس: ويرجح ابن عطية أنّ «القرآن» مصدرٌ من قولك: قرأ الرجل: إذا تلا - يقرأ قرآنًا وقراءة - ... ثم يقول: ومنه قول حسان بن ثابت:

ضَحَّوا بأشْمَطَ عنوانُ السُّجودِ به
يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنا

أي: قراءة... (٢٠).

ولعلّ هذا مراد الزركشي بقوله: وقال بعض المتأخرين: لا يكون «القرآن» و«قرأ» بمعنى «جمع»؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(٢١)، فغاير بينهما، وإنّما مادته «قرأ» بمعنى «أظْهَرَ أو بيَّنَ»، والقارىء يُظْهِرُ القرآنَ ويخرجه، والقرء: الدم، لظهوره وخروجه. والقرء: الوقت، فإنّ التَّوقيتَ لا يكون إلاّ بما يظهر(٢٢)، ومثل هذا القول حكى قطرب قال: إنما سُمي قرآنًا: لأنّ القارىء يُظْهِرُهُ ويُبيِّنُه من فيه، أخذًا من قول العرب: ما قرأت الناقة سلىً قط، أي: ما رمت بولد، أي: ما أسقطت ولدًا، أي: ما حملت قطّ.

والقرآن يلفظه القارىء من فيه ويلقيه، فَسُمِّيَ قرآنًا(٢٣). قال ابن منظور: قال أكثر النّاس: معناه: لم تجمع جنينًا. أي: لم يَضْطَمّ رحمها على الجنين. قال: وفيه قولٌ آخر: أي: لم تُلْقِه. ومعنى «قرأت القرآن»: لفظت به مجموعًا. أي: ألقيته(٢٤).

ومما سبق يتبيّنُ لنا أنّ بعضَ العلماءِ يرجِّحُ كون لفظ «القرآن» مشتقًا من «قرأ» بمعنى: جمع. في حين يرجح بعضهم كونه من قرأ بمعنى «ألقى وأظهر»: أي: تلا.

والّذي نراه في ذلك أن مادة «قرأ» في الأصل إنما تفيد الجمع الّذي يعقبه إلقاء أو ظهور، كما في قولهم: «لم تقرأ جنينًا»: أي لم تحملْ ولم تُلْقِ؛ أي: لم تجمع رحمها على ملقوح ولم تلد. وكذلك «القرء» فإنه يطلق على ظهور الدم حال الحيض بعد تجمعه في الرحم في أثناء الطهر، يقول الراغب: والقرء في الحقيقة: اسمٌ للدخول في الحيض عن طهر، ولمّا كان اسمًا جامعًا للأمرين: الطهر والحيض المتعقب له، أطلق على كلّ واحدٍ منهما؛ لأنّ كلّ اسمٍ موضوع لمعنيين معًا يطلق على كلّ واحدٍ منهما إذا انفرد، كالمائدة للخوان وللطعام. ثم قد يسمى كلّ واحدٍ منهما بانفراده به.

وليس القرء اسمًا للطهر مجرّدًا، ولا للحيض مجرّدًا، بدلالة أنّ الطاهر التي لم ترَ أثر الدم لا يقال لها: ذات قرء. وكذا الحائض التي استمرّ بها الدم، والنفساء لا يقال لها ذلك(٢٥). وكذلك «القارئة»: وهو الشاهد، ويقولون: النّاس قواري الله في الأرض - هم الشهود - وممكن أن يحمل هذا على ذلك القياس، أي: إنهم يقرون الأشياء حتى يجمعوها علمًا، ثم يشهدون بها(٢٦).

وبناءً على هذا تكون القراءة من الجمع الّذي يتلوه الإلقاء أو الظّهور، أو التّلاوة، وذلك أنّ التّلاوة مرحلة تالية للجمع؛ لأنّ التّلاوة إذا كانت عن ظهر قلب فقد سبقها الجمع للنّصّ المقروء في الصدور. وإن كانت من المصحف فقد سبقها الجمع في السّطور. ولعلّ هذا مراد الراغب بقوله: «والقراءة ضمّ الحروف بعضها إلى بعض في التّرتيل، وليس يقال ذلك لكلّ جمع(٢٧). فهو إذًا جمع مخصوص للحروف في التّلاوة مسبوقٌ بجمعها في الصُّدور، أو السُّطور. فهو الصُّورةُ الظّاهرةُ المسموعةُ لما كان محفوظًا أو مكتوبًا.

وبناءً على ذلك تكون «القراءة» اسمًا جامعًا لكل من الجمع والتّلاوة معًا، ويمكن أن تطلق على كلٍّ واحد منهما.. لأنَّ كلَّ اسمٍ موضوع لمعنيين يطلق على كلّ واحدٍ منهما إذا انفرد، كالمائدة للخوان وللطعام، ثم قد يسمّى كلّ واحدٍ منهما بانفراده به - على حدّ تعبير الراغب - وإذا صحّ هذا كان معنى «قرآنه» في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾: تلاوته فقط؛ لأنّ معنى الجمع ذكر قبل ذلك مستقلاً في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾.

وبهذا التّحقيق تظهرُ لنا أصالةُ الكلمةِ في العربية، خلافًا لما ذهب إليه الدكتور صبحي الصّالح (رحمه الله) من أن «قرأ» بمعنى: تلا، قد أخذها العرب من أصل آراميٍّ وتداولوها، وأنّ «العرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ «قرأ» استخدموه بمعنى غير معنى التّلاوة فكانوا يقولون: هذه الناقة لم تقرأ سلىً قط، يقصدون أنها لم تحمل ملقوحًا ولم تلد ولدًا»(٢٨).

والدكتور صبحي في هذا متأثرٌ بما ذهب إليه المستشرق براجستراسر Bergstraesser الّذي يدّعي أنّ اللغات الآراميّة والحبشيّة والفارسيّة تركت في العربيّةِ آثارًا لا تنكر؛ لأنّها كانت لغات الأقوام المتمدنة المجاورة للعرب في القرون السّابقة للهجرة.

ويقول الدكتور صبحي: «وما لنا نستغرب هذا ولا نصدقه، ونحن نعلم أنّ لهجات الآراميّةِ المختلفة كانت تسودُ كلَّ بلادِ فلسطين وسورية وبين النهرين وبعض العراق؟ ونعلم أيضًا أنّ جوار العرب لليهود الّذين كانت لغتهم الدينية الآرامية عجّل في انتشار كثيرٍ من الألفاظ الدينية الآرامية؟ وقد أشار إلى هذا المستشرق كرنكو Krenkow في بحثه عن لفظ «كتاب» في دائرة المعارف الإسلامية. كما نقل المستشرق بلاشير Blashere طائفة من الكلمات الدينية الآرامية والسريانية والعبرية مؤكدًا استعمال العرب له من أثر الجوار مع اليهود وسواهم من أصحاب الملل. ونذكر من تلك الألفاظ «قرأ» «كتب» «كتاب» «تفسير» «تلميذ» «فرقان» «قيّوم» «زنديق».

ثم يقول الدكتور صبحي: ومهما يكن من شيءٍ فإنّ تداول العرب قبل الإسلام للفظ «قرأ» الآرامي الأصل بمعنى «تلا» كان كافيًا لتعريبه واستعمال الإسلام له في تسمية كتابه الكريم(٢٩).

وهذا الكلام الأخير يناقض ما سبق أن قاله الدكتور صبحي من أنّ العربَ في الجاهليّةِ حين عرفوا لفظ «قرأ» استخدموه بمعنى غير معنى التّلاوة، فكيف يصحّ قوله «استخدموه بمعنى غير معنى التّلاوة» مع قوله بعد ذلك «ومهما يكن من شيءٍ فإن تداول العرب قبل الإسلام للفظ «قرأ» الآرامي الأصل بمعنى «تلا» كان كافيًا لتعريبه، واستعمال الإسلام له في تسميته الكتاب الكريم!!

إنّ منهجَ المستشرقينَ في مثل هذه الدراسات يهدف إلى تجريد العربية من أهمّ مفرداتها العلمية لإثبات أنّ كلّ فضيلة في هذه اللغة إنما ترجع إلى لغاتٍ أخرى، وهم يلجؤون - في ذلك إلى الكلمات التي تحتملُ أكثرَ من معنى، ويحاولون التّشكيكَ في عربيّةِ هذه الكلمات بناءً على عدم وجودِ صلةٍ اشتقاقيّةٍ بينها - حسب زعمهم - كما لاحظنا ذلك في مادة «قرأ»، وكما جاء في دائرة المعارف الإسلاميّةِ في كلمة «أُمَّة»(٣٠). وإذا لم يجد المستشرقون صلة اشتقاقيّة بين المعاني المتعددة في المادة الواحدة فهم معذورون في ذلك لضعفهم في العربية، وعدم قدرتهم على الخوض في أعماقها واكتشاف أسرارها، لكنهم ليسوا معذورين أبدًا، في إطلاق الأحكام المستعجلة على لغةٍ غير لغاتهم، وهم على ما هم عليه من سطحية في دراسة العربية وجرأة في التّقوّلِ عليها، والإدلاء بآراءٍ وافتراضاتٍ يبطلُها النظرُ العقليُّ السّليمُ والتّحقيقُ العلميُّ البصيرُ.

ثمّ إنّ وجود كلماتٍ مشتركة بين لغات عدّة إذا كانت من فصيلة واحدة، كاللّغاتِ السّاميّة، لا يشترط فيه أن تكون الكلمة المشتركة قد أخذتها إحدى اللغتين عن الأخرى، وإنما يمكن أن يكون الاشتراك بسبب رجوعهما إلى أصلٍ واحد. كذلك لا بدّ من إقامة الدليل

عند ادِّعاء أنَّ إحدى اللغتين هي الآخذة والثانية هي المأخوذ عنها؛ لأنَّ الأمر محتملٌ أن يكون على الضِّدّ من ذلك، فتكون المأخوذ منها آخذة، والآخذة مأخوذاً منها.

إنَّ عدم شيوع بعض معاني الكلمات في الشعر العربي، وهي التي يثير حولَها المستشرقونَ شبهاتهم وشكوكهم، مَرَدُّهُ إلى واقعِ العربِ واهتماماتهم في ذلك الوقت؛ إذ من المعروف أن أُمَّة العرب في جملتها أمة أميّة لا تقرأ ولا تحسب، ومن هنا فقد كانت كلمة «القراءة» و«الكتاب» و«الدرس» وأمثالها قليلة الاستعمال في معانيها العلميَّةِ، وكان أكثر استعمالها في المعاني الحسيَّة، ولكن هذا لا يمكن أن ينفيَ المعنى العلميَّ عن الكلمة، ثم ندعي أنَّ هذا المعنى مأخوذٌ من لغة أخرى[٣١].

ومهما يكن من أمر فإنَّ لفظ «القرآن» – في الأصل – مصدر بمعنى «القراءة» ثم أصبح بنزول القرآن علماً شخصياً عليه، قال الله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ**﴾[٣٢]، وقال: ﴿**إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[٣٣].

ومن خلال ما لاحظناه من التحريف وإطلاق الأحكامِ العامَّةِ يمكنُ أن نؤيد ما ذهبَ إليه الدكتور السّباعي رحمه الله في حديثه عن بحوث المستشرقين وما اتسمت به من الظّواهر:

قال الدكتور السِّباعي في كتابه «السنة»:

- أخذت بحوث المستشرقين طابعًا اتّسم بظواهرَ معيّنةٍ عدّد منها الدكتور السباعي ما يأتي:
- التَّشْويه المتعمَّد لكلّ ما يَتَّصِلُ بالإسلامِ في أهدافِهِ ومقاصدِه.
- التشويه المتعمَّد لصورةِ رجالِ المسلمين وعلمائهم وعظمائهم.
- تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور وبخاصة في العصر الأول بالهمجية والتفكّك والأنانية.
- تصوير الحضارة الإسلامية تصويرًا دون الواقع، والتهوين من شأنها واحتقار آثارها.
- الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي والحكم عليه من خلال أغلاط وتصورات خاطئة مغرضة.
- إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص.
- تحريف النصوص في كثيرٍ من الأحيان تحريفًا مقصودًا.
- تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدَّميريّ في كتاب «الحيوان»، ويكذبون ما يرويه مالك في «الموطأ»، يصنعون كل ذلك انسياقًا مع الهوى.

إنَّ المستشرقين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم يعملون على وفق تخطيطٍ مدروس يستهدفُ إضعافَ القوة الإسلامية في شتى المجالات...

- لقد كان نقل تراثنا إلى الغرب في الماضي لتعديل ثقافي، ثم استغلَّه الغربُ في العصر الحديث لتعديل سياسيّ... إنَّ ما أخذه الغرب عن المسلمين سواءٌ عن طريق الدرس أو الترجمة أو نقل المخطوطات والمؤلفات هو الَّذي غَيَّرَ مسيرةَ الحضارة الأوربية؛ فقد وضعها في أوَّلِ طريقِ النَّهْضَة، وزوّدها بأدوات النَّجاح في الوصول إلى المنجزات الحضارية... فالحضارةُ الأوربيَّةُ المعاصرة ترجعُ إلى عصر النهضة، وهذا العصر يرجع إلى ثقافة المسلمين في الأندلس وجزر المتوسط، وإلى ما عاد به الصليبيون من الديار الإسلامية بعد أن عاثوا فيها فسادًا نحو مائتي عام...

إنَّ الهدف الأوَّلَ من نشر التُّراث هو معرفةُ جوانبِ القوة للقضاء عليها وجوانبِ الضَّعْفِ

لتعميقها، ليظلَّ النفوذ الغربيُّ طاغيًا علينا... «فالاستشراق على هذا استخدام العلم في خدمة السياسة»، ويدل على ذلك:

- معظم ما اختاره من التُّراث يعكسُ الاضطرابَ الفكريَّ والسياسيَّ بين المسلمين، ولذلك يهتمُّ بكتب الفرق والصِّراعات السِّياسيَّة والمذهبيَّة.. لكي ينشغلَ بها علماءُ الأمَّة، وتستهلك الطاقات فيما يؤجّج الفرقة، ويشيع الخلاف والشقاق.
- منهج التحقيق لم يكن علميًا، فإضافة إلى أخطاء الفهم كان هناك التَّحريفات والتعليقات التي تُعَبِّرُ عن التَّعصُّبِ والاتهام للإسلام ولغته، كما تعبّر عن خدمة الأهدافِ السياسية والأطماع الاستعمارية، والتوجهات التنصيرية.
- ما وضعه من الفهارس في القرآن وأمهات كتب السنّة كان الهدف منه تهيئة جمع المادة العلمية التي يتظاهر بها جادًّا موضوعيًّا مخلصًا خادمًا للتراث، وبذلك يحصل على جواز مرور لدى المثقفين المسلمين لكلِّ ما يصدر عن المستشرقين من آراءٍ فتلقى القَبولَ والاستحسان، بل التفضيل على سواها والنظر إلى من يحمل عليها نظر نفورٍ وازدراء.

١ - المرحلة الأولى : من بداية الاستشراق إلى عصر الاستعمار.

كان فيها الفكرُ الاستشراقيُّ موجهًا إلى الأوربيين خاصَّةً.. وقد قدّم فيها الإسلام في صورة منفّرة تثير الضّيق به والتَّوجّس منه... خوفًا من أن ينتشر بين الأوربيين. وبعد غزو أوربا للعالم الإسلاميّ.. أصبح كذلك موجهًا إلى المسلمين، بل إنَّ هذا الفكر هو الَّذي رسم للاحتلال السِّياسة التَّعليميَّة والثّقافيَّة والاجتماعيَّة وأشرف عليها. وما كانت هذه السِّياسةُ تتغيًا النهوض بالعالم الإسلاميّ، وإنما كان الهدف أن يكون هذا العالم مقلّدًا للعالم الغربيِّ يدور في فلكه، ويتطور في نطاق مصالحه.. ومن هنا بدأت:

٢ - المرحلة الثانية : حيث نشب الصِّراعُ الفكريُّ بين طائفة من المسلمين وبعض المستشرقين وظهرتْ كتاباتٌ تحذّر من خطط الاحتلال بوساطة الاستشراق، ولكنَّ هذا الصِّراع لم يَحُلْ دونَ تحقيقِ هدفِ الاستشراق، وتجلّى ذلك في ميادين التربية والثقافة. فقد تخرجت أجيالٌ في ظلِّ نظام تربويِّ له فلسفتُهُ الماديّة التي لا تلتقي مع فلسفة التَّربية الإسلامية، ونجمَ عن هذا الثنائيَّةُ الفكريَّةُ والتمزُّقُ الثَّقافيُّ الَّذي أتاحَ لكلِّ الاتجاهاتِ الوافدةِ والدّخيلةِ أن تجدَ أنصارًا يؤمنون بها ممَّا ضاعفَ حدَّةَ الصِّراع، وبدّد الطاقاتِ فيما لا يعود على الأمَّة إلا بمزيدٍ من الضَّعفِ والتَّخلفِ والتَّبعيَّةِ.

كان ابتعاث الطلاب المسلمين إلى أوربا للدراسة والدّراسةِ العليا خاصَّةً يتيح للاستشراق توجيه هؤلاء الطلاب ليقوموا بعد عودتهم إلى أوطانهم بتبني الفكرِ الاستشراقيِّ وإذاعته والتمكينِ له.

حكى الدكتور عمر فروخ الَّذي حضر إلى باريس عام ١٩٣٦م ليدرس على ماسينيون، ومارسيه، وليڤي بروفنسال.. وغيرهم مدة.. ثم أراد العودة إلى ألمانيا لمتابعة دراسته الأساسيَّةِ ووَدَّعَ أساتذته، فقال له مارسيه قبل أن يغادر السوربون: يا عمر أنت تدرس في ألمانيا فتدفع أقساطًا مدرسية، وتنفق على معيشتك، فَتَعالَ إلينا، سَتَتَعَلَّمُ مجانًا، وسنعطيك منحةً، ثم إذا رجعت إلى بيروت وجدت منصبًا ينتظرك... ويقول الدكتور فروخ معقبًا: أنا أعرف أشخاصًا درسوا في فرنسا وفي غير فرنسا، ثم لما عادوا إلى بيروت وإلى غير بيروت وجدوا مناصبَ تنتظرهم، وقد فعلوا ما عجز المستشرقون والمنصِّرون عن تنفيذه، وزادوا في الشرِّ على ما كان المستشرقون والمنصرون يريدونه.. وذلك لأنَّ مثل هؤلاء لم تكن لديهم حصانةٌ فكريَّةٌ إسلاميَّةٌ تحميهم من الانبهار بفكر الاستشراق والتخلُّص من عقدة النقص تجاه استعلاء الغرب.

هذا غيضٌ من فيض من ملامح الاستشراق وأهدافه ووسائله، ونحن لا نتجنى على المستشرقين،

ولا نغمطهم حقهم؛ لأنَّ الإسلام هو الَّذي علمنا العدل والإنصاف فقال: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾، ﴿ويل للمطففين﴾، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾.

ومن ثمّ فنحن لا ننكر ما قام به المستشرقونَ من تحقيق المخطوطات ونشرها، وما ترتَّبَ على ذلك من فوائدَ، ولكن قضية الاستشراق لا يمكن تجزئتها، فحينما نضعُ هذا الجهدَ ضمنَ الخطة الاستراتيجية للاستشراق، ستكون له دلالة أخرى، وهي ما سبق أن أشرنا إليه، فهم حينما فكروا في ذلك وأقدموا عليه لم يكونوا يفكرون في إفادتنا وخدمة تراثنا، وإنما فعلوا ذلك لفائدتهم وأهدافهم. ومن ثمّ يختلف التقويم باختلاف الغايات والأهداف، وإن كان يترتب على ذلك فوائدُ جزئيَّةٌ لم تكن مقصودة في الأصل. ﴿والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. ●

●●●

الحواشي

١ – دائرة المعارف الإسلامية: ٤/٤١١–٤١٤.
٢ – أنظر ما يقوله هوروفتز عن نقش الصفا، رقم ٥٢ ص: ٤٠٧.
٣ – سيرة ابن هشام: ٣٤١–٣٤٢ وما بعدها.
٤ – الكلّيات: ١/٣٠١.
٥ – بصائر ذوي التميز: ٢/٢٩.
٦ – تحصيل نظائر القرآن: ٨٢.
٧ – مخطوط، نسخة في معهد المخطوطات، بالقاهرة.
٨ – الكليات: ١/٣٠٢ – ٣٠٣.
٩ – تهذيب الإسماء واللغات: ٢/١١.
١٠ – في ظلال القرآن: ٩/٩٣.
١١ – السيرة النبوية، لابن كثير: ٢/ ٣٢٠ – ٣٢٣.
١٢ – البرهان للزركشي: ١/ ٢٧٧ – ٢٧٨.
١٣ – الإتقان للسيوطي: ١/١٤٦.
١٤ – معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٧٨ – ٧٩ بتصرف.
١٥ – مفردات ألفاظ القرآن: ٤١٤.
١٦ – الإتقان: ١/١٤٧.
١٧ – البرهان للزركشي: ١/٢٧٧.
١٨ – مفردات ألفاظ القرآن: ٤١٤ بتصرف.
١٩ – البرهان للزركشي: ١/٢٧٧.
٢٠ – المحرر الوجيز: ١/٤٥.
٢١ – القيامة: ١٦.
٢٢ – البرهان للزركشي: ١/٢٧٧.
٢٣ – الإتقان للسيوطي: ١/١٤٧.
٢٤ – لسان العرب: ١/١٢٨.
٢٥ – مفردات الراغب: ٤١٣.
٢٦ – معجم مقاييس اللغة: ٥/٨٠.
٢٧ – مفردات الراغب: ٤١٤.
٢٨ – مباحث في علوم القرآن: ١٩.
٢٩ – مباحث في علوم القرآن: ٢٠.
٣٠ – انظر مقولة المستشرقين في معنى كلمة «أمة» وردّنا عليها في كتاب «الأمة في دلالتها العربية والقرآنية»: ٩ – ٢٢.
٣١ – ذكر العلاّمة عبد الحميد الفراهي في كتابه «مفردات القرآن» ص ٣٧ كلمة «درس» وقال فيها: «هذا اللفظ يوجد كثيرًا في كلام العرب في معنى «البلى» وأمّا في معنى «القراءة» كما يفهمون من استعمال القرآن حيث جاء ﴿أم لكم كتابٌ فيه تدرسون﴾ فلا يوجد له مثال. وزعم بعض من غير المسلمين أن هذا اللفظ أخذه النبي ﷺ من اليهود، وزاده في لغة العرب، وهذا بعيد، فإنّ النبي ﷺ كيف يكلّم قومًا بلغتهم، ثم يزيد فيها ما ليس منها، والقرآن يصرح بأنه عربيٌّ مبين، فلا يكون فيه إلاّ ما عرفته العرب. فاعلم أن «الدرس» في معنى «البلى» مجاز، وأصله «الحك والمشق» ومنه للخط قال أبو داود:

ونـؤيٌ أضـرَّ بـه السـافـيـاء
كـدرس مـن الـنـون حين امحى

أي: كخطّ النّون. وشكلُ النُّونِ في الخطّ العربيّ القديم هكذا «ن» فشبه أمواج الرمل بهذا الشكل. وقد شبّه عنترة «الحاجب» بالنون في قوله:

لَـهُ حَـاجِـبٌ كَـالـنُّـونِ فَـوقَ جُـفُـونِـهِ
وَثَـغْـرٌ كَـزَهْـرِ الأَقْـحُـوانِ مُـفَـلَّـجُ

ومنه: كثرة الاشتغال بالقراءة، وهذا يتضح من استعمال هذه الكلمة في كلتا اللغتين العربية والعبرانية. ومن أصل المعنى: الدرس: للجرب والحكة. والمدروس: الفراش الموطأ، والدرس: للأكل الشّديد. ومنه، درس الطعام: داس، قال ابن ميادة:

هـلا اشتريت حـنـطـة بـالـرسـتـاق
سـمـراء مـمّـا درس ابـن مخراق

ودرس الصعب حتى راضه، ودرست الكتاب بكثرة القراءة حتى خفّ حفظه، فالدرس: كثرة القراءة. ومعنى الكلمة في العبرانية: اختصّ بالقراءة. وأمّا في العربية: فبقيت الكلمة على السّعة وأقرب إلى الأصل، إذ جاءت لكثرة القراءة، لا للقراءة كما قال تعالى: ﴿وليقولوا درست﴾ أي: بالغت في قراءتك عليهم. وأمّا أنها لا توجد في هذا المعنى في أشعار العرب، فذلك لأنَّ للشِّعرِ مجاريَ محدودةً، ومعانيَ خاصَّةً، فقلّما يذكرون «القراءة» فضلاً عن إكثارها».
٣٢ – البقرة: ١٨٥.
٣٣ – الإسراء: ٩.